أسباب انشراح الصدر

للعلامة الشيخ

محمد أمان الجامي

رحمه الله

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

موضوع درسنا الموضوع العام هو الكلام في أحكام الصيام، ولكن استحسنا واخترنا هذا الكتاب؛ زاد المعاد في هدي خير العباد للعلامة ابن القيم ليكون هو كتاب درسنا في أحكام الصيام في هذه الأيام المباركة.

وبين يدي أحكام الصيام قدَّم العلامة ابن القيم بحثًا مهمًا جدًا في أسباب شرح الصدور، وحصول ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم على وجه الكمال البشري، لذلك نبدأ بهذه الأسباب، ولعلنا نبدأ في معالجة أنفسنا قبل أن نبدأ في الصيام لنعد أنفسنا لاستقبال صيام شهر رمضان، وبالله التوفيق.

القارئ: **يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:** فصلٌ في أسباب شرح الصدور وحصولها على الكمال له صلى الله عليه وسلم، فيقول: فأعظم أسباب شرح الصدر التوحيد على حسب كماله وقوته، وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه.

شرح الشيخ: التوحيد يضعف ويقوى في نفس العبد، يزيد فينقص، لأن أصل التوحيد هو الإيمان، الإيمان بالله تعالى وإفراده بالعبادة، وتوحيده في أسمائه وصفاته بعد توحيده في ربوبيته، والناس يتفاوتون في هذا التوحيد، وعلى حسب كمال هذا التوحيد وضعف هذا التوحيد وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، وهذا شيءٌ يعلمه الإنسان من نفسه، زيادة الإيمان ونقص الإيمان وقوة الإيمان وضعف الإيمان وقوة توحيدك وضعفه لو درس الإنسان أحوال نفسه في كل لحظة يدرك، هذه أعراضٌ تعتري كل إنسان، لأن القوة والضعف لهما أسباب، أسباب ضعف التوحيد ونقصان التوحيد وضعف الإيمان ونقصان الإيمان المعاصي والإعراض عن الله سبحانه وتعالى. وأسباب قوة الإيمان وقوة التوحيد وزيادة الإيمان وزيادة التوحيد الطاعة والامتثال، إذا كانت الطاعة على وفق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نحن نذكر مع قوة التوحيد وضعف التوحيد قوة الإيمان وضعف الإيمان؛ لأن الإيمان تلك الحقيقة التي في النفس، حقيقتها تعظيم الرب سبحانه وتعالى، ومحبة الله، وتعظيم أوامره، هذه الأمور تنتج إفراد الله تعالى بالعبادة وعدم الالتفات إلى سواه، وإفراده في أسمائه وصفاته، وإفراده في ربوبيته، وذلك هو الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، على نورٍ من ربه من شرح الله صدره للإسلام، على نورٍ من ربه سبحانه وتعالى قد نوَّر الله قلبه، يعبد الله كأنه يرى الله من شدة المراقبة ويُرزق الأنس بالله سبحانه وتعالى، فإذا اعترته أعراضٌ بشريةٌ لا بد منها أحس بالوحشة، وفرَّ إلى من؟ إلى الله، يفر إلى الله، ليخلصه من شر نفسه وهواه.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]؛ كالذي يحاول الصعود ويتكلف الصعود، فمن يرد الله أن يهديه، من يريد الله هدايته بالهدايتين؛ هداية الإرشاد والدلالة والبيان وهداية التوفيق والإلهام، يشرح صدره للإسلام، يحب الإسلام، ويفرح بالإسلام، الإسلام الذي هو الاستسلام والانقياد، يرى من نفسه محبة الإسلام ومحبة الالتزام ومحبة الاستقامة، إذا رأى العبد من نفسه هذه المعاني معناه أن الله شرح صدره للإسلام، وهداه، وهذه هداية الإرشاد والدلالة والبيان حصلت، تتبع ذلك هداية التوفيق والإلهام بأن يوفقه للعمل الصالح والإخلاص فيه، ومتابعة رسوله عليه الصلاة والسلام، إذ لا قبول للأعمال إلا بالأمرين معًا:

- إخلاص العمل لله تعالى بحيث لا يشوبه شيءٌ من الرياء وحب الشهرة والظهور والبروز، ولكن يريد وجه الله وحده.
- ويكون ذلك العمل وفق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوفقه إلى ذلك.

أما من يريد الله أن يضله وأمسك عنه التوفيق وخذله، فلم يعنه على نفسه وشيطانه، فلم يعنه إعانةً تجعله يحب الله ورسوله وطاعته، يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصَّعَّد في السماء؛ يرى في امتثال المأمورات واجتناب المنهيات صعوبةً شديدة، لا يرى من نفسه الانشراح ليمتثل ويعمل ولينتهِ عن ما نُهي عنه، بل يرى هذه قيودٌ صعبة تقيده وتقضي على حريته وإنسانيته، يريد أن ينطلق، هذا هو الضياع، فإذا رأى الإنسان من نفسه هذا المعنى ووقف هذا الموقف عليه أن يبادر بالفرار إلى الله ليخلصه، وإن وفقه الله سبحانه وتعالى في هذه الظروف إلى الفرار إليه وفقه توفيقًا، وإن لم يوفقه ضل وضاع، هكذا سبق في علم الله سبحانه وتعالى ومكتوبٌ عنده من يُوفق ويُلهم ويعمل ويشرح صدره للإسلام، ويحب الإسلام وأهل الإسلام، ومن هو بالعكس كل ذلك سابقٌ في علم الله تعالى وكتابه السابق، بيد أننا لا نعلم هذا السر، مطالبون بظاهر الشريعة، علينا أن نطلب من الله سبحانه وتعالى الهداية في كل لحظة؛ إذ قد يكون من الأسباب لأن يخلص الله عبده مما تورط فيه الإكثار من الدعاء واللجوء إلى الله، كما سيأتي في أسباب انشراح الصدر.

القارئ: يقول الشيخ العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "الهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر".

شرح الشيخ: الهدى الذي هو ضد الضلالة، الذي هو المتابعة، صحة المتابعة، الهدى ضد الضلال، والتوحيد ضد الشرك بنوعيه؛ الشرك الأكبر والأصغر، من رزقه الله الهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، انشرح صدره، إذا وفقه الله فوحَّد الله في عبادته، في ربوبيته؛ توحيد الربوبية الذي هو توحيد الفطرة والعقل، وجاء الشرع مؤيدًا لذلك، ثم أتبع ذلك بتوحيد العبادة لأن توحيد الربوبية وحده لا يجدي ولا ينفع، ولو وحَّد الإنسان رب العالمين بأنه وحده هو الخالق الرازق وهو المعطي المانع وهو النافع الضار وهو القادر على اختراع كل شيء، لا شريك له في كل ذلك، لو وحده هذا التوحيد ولكن لم يوحده في عبادته؛ فيدعو معه غيره ويستغيث بغيره، ويخاف خوفًا غير طبيعيٍ من

غيره، ويحب غيره محبة غير طبيعية، ويساوي بينه وبين عبدٍ من عباده في علم الغيب والتصرف في الكون، لو وحَّد الله في ربوبيته على ما ذكرنا ولكن تورط في هذه الأنواع من الشرك الأكبر ما نفعه ذلك التوحيد أبدًا، بل لا يدخل بذلك التوحيد في الإسلام، فضلاً من أن يكون من أولياء الله تعالى، لأن توحيد الربوبية توحيدٌ لم يجهله أبو جهلٍ نفسه، أبو جهلٍ وأمثاله يوحدون الله في ربوبيته، وإنما حُكم عليهم بالشرك والكفر واستُحلت أموالهم ودماؤهم لأنهم لم يوحدوا الله في عبادته، فأشركوا بالله في العبادة، وهذا شيءٌ يجب أن يعلمه صغار طلبة العلم قبل كبار طلبة العلم، بل جميع المسلمين، يجب أن يعلموا أنه لا بد من الجمع بين التوحيدين؛ توحيد الربوبية وتوحيد العبادة.

إذا تم للمرء هذا التوحيد ثم حصل له الهدى، اتباع هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك يحصل له انشراح صدره أعظم انشراح.

والشرك كما مثلنا والضلال كما أشرنا من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، من علق قلبه بغير الله تعالى، يخاف من هذا ويحذر من ذاك، ويرجو زيدًا ويخاف عمرًا، ويحلف بخالد... وهكذا موزع بين عباد الله، يخاف من الجن والإنس، لا يوحد الله بالمحبة والرغبة والرهبة، ويتبع كل ما سمع، لا يبحث عن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتبعه، في صلاته وفي جميع عباداته لا يتقيد بالهدي النبوي، من ابتلي بهذا الداء فقد أصيب بأعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، دائمًا في ضيق وفي حرج، لأن محبته موزعة، وخوفه موزع، واتباعه موزع، لم يوحد اتجاهه في سيره إلى الله، لذلك فهو دائمًا في ضيق وفي حرج، فنسأل الله لنا ولكم السلامة.

القارئ: ويقول العلامة ابن القيم: **"ومنها"**؛ من أسباب انشراح الصدر **"النور الذي يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب العبد"**.

شرح الشيخ: هذا النور نور الإيمان، هذا النور إنما يحصل إذا قوي الإيمان، الإيمان له نور وله طعم وله ذلة، يتذوق الإنسان طعم الإيمان ويجد في نفسه لذة الإيمان، ويُنوَّر قلبه

بنور الإيمان، كل ذلك إذا صح إيمانه، لا الإيمان المُدَّعى بل الإيمان الحقيقي الذي علم الله منه إيمانه.

وهذه الأمور بالنسبة لنا نحن نحكي، ولكن ابن القيم يتحدث حديث إنسانٍ مجرب، يحس هذا المعنى في نفسه رحمه الله؛ فإن هذا النور يشرح الصدر ويوسعه، ويرى الدنيا عنده ليست بشيء، لا يرى زخارف الدنيا ونعيمها وعذابها ومشاكلها، كل ذلك لا يراه شيئًا، لأنه ارتبط بنور الإيمان، وهذا النور يربطه بالله سبحانه وتعالى، فإنه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب، دائمًا فيما بينه وبين الله في فرحٍ وسرورٍ وإن كان فيما يبدو للناس هو في ضيق، قد يكون في فقر، في ضيق، وفي تسلط الأعداء عليه كما هو الحاصل لكثيرٍ من المصلحين من الأنبياء ولورثة الأنبياء، كثيرًا ما يمتحنهم الله سبحانه وتعالى بأن يسلط عليهم أعداءهم، لكن في الوقت نفسه يرون في أنفسهم محبةً لله وسرورًا.

لذلك يُحكى عن شيخه العلامة الإمام ابن تيمية عند ما كان يُعذَّب ويُنفى ويُسجن، يقول: "جنتي في صدري، ماذا يعمل أعدائي؟ نفيي سياحة، وسجني خلوة، وقتلي شهادة"، وهل يعمل الأعداء أكثر من هذا؟! القسمة ثلاثية ليس هناك شيءٌ آخر، إما أن يُنفى وإما أن يُسجن وإما أن يُقتل، وفي الحالات كلها فهو في جنته، يقول هو أو غيره من أصحاب التحقيق: **لا يدخل العبد جنة الآخرة حتى يدخل جنة الدنيا**؛ أي حتى يجد لذةً في طاعة الله تعالى وعبادته والأنس به وانشراح صدره، وتتحول جميع المشاق عنده كلا شيء، يرى نفسه كأنه في الجنة وهو في الدنيا، بعد ذلك يدخل جنة الآخرة، والله المستعان.

القارئ: يقول العلامة ابن القيم: **"فإذا فُقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج وصار في أضيق سجنٍ وأصعب سجن"**.

شرح الشيخ: قد يكون فيما يبدو للناس في نعيم، في راحة، لكن فيما بينه وبين الله إذا فقد ذلك النور ضاق صدره، وهذه المعاني كلها فيما بين العبد وبين الرب، وأما ما يحصل للإنسان من متع الدنيا هذه المتع قد تحصل لأعداء الله وللكفار ما لا يحصل لأولياء الله

تعالى، أي ليست هي المعيار، التنعم بنعيم الدنيا وأن يعيش الإنسان في سعةٍ من الحياة وفي بحبوحة من العيش أو في ضيق كل ذلك ليس بمعيار وليس هو محل الحديث، وإنما القضية قضيةٌ خاصة بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى.

وقد روى الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«إذا دخل النور القلب انفتح وانشرح»**، يعرف ذلك الإنسان من نفسه، وقد يعرف ذلك غيره بالقرائن وبتصرفات هذا العبد، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: **«الإنابة إلى دار الخلود»**، هذه العلامة التي يعرف بها الإنسان، إذا رأيت الإنسانَ ذا إنابةٍ وتوجهٍ وإكثارٍ من التوبة وإقبالٍ على الله والتجافي عن دار الغرور، وأن متع الحياة لا تضره لأنه دار الغرور يأخذ منها زادًا لآخرته، ما يحصل له من متاع الدنيا يستعمله زادًا لآخرته، لا ينخدع بها، لا تشغله عن طاعة الله وعن عبادة ربه سبحانه وعن اتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، **«والاستعداد للموت قبل نزوله»**، كيف يستعد الإنسان للموت؟ الاستعداد للموت أكثر أهل العلم من ذكر الاستعداد للموت في مؤلفاتهم وفي كتبهم، ذلك بالتوبة والإنابة والإكثار من مراجعة صفحات أعمالك الماضية، والإقبال على الله، وانكسار القلب، والحزن لأنك لا تدري بم يُختم لك، تُرزق الخوف مع السرور والانشراح، لا بد أن يجمع العبد بين الخوف وبين الرجاء، لا يغلب عليه الخوف حتى يصل إلى درجة القنوط واليأس، ولا يغلب عليه الرجاء حتى يركبه الغرور، ولكنه يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، يلازم هذه الخطة وهذا الطريق، بهذا يستعد للموت.

وبالمناسبة هذا الحديث ذكر المحققون للكتاب أن ما ذكره العلامة ابن القيم بأنه رواه الترمذي، يقول: جعل ذلك وهمًا لأن الترمذي لم يذكره، معناه راجع المحققون الترمذي فلم يجدوه، وحكموا بهذا الحكم، ونفي النهاية بعد التتبع إن الحافظ بن كثير أثبت هذا الحديث، أي هو ثابت، سواءٌ كان ذُكر في الترمذي أو لم يُذكر، الذي يهمنا ثبوته، فجزاهم الله خيرًا الذي حققوا ونقلوا إلينا هذه المعلومات.

القارئ: يقول العلامة ابن القيم: "فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور".

شرح الشيخ: وكما تقدم الناس تتفاوت في قوة الإيمان وضعف الإيمان، وذلك حسب قوة هذا النور وضعف هذا النور، وهذا أمرٌ معنويٌ يدركه الإنسان من نفسه، ويدركه غيره بالعلامات التي ذكرها وجاء ذكرها في الحديث، وكذلك النور الحسي، يريد أن يضرب المثل لذلك بالنور الحسي؛ النور الحسي والظلمة الحسية هذه تشرح الصدر وهذه تضيقه، إذا كنت في مكانٍ منور وأنت بحاجةٍ إلى النور لتسير ولتقرأ ولتستفيد ينشرح صدرك بهذا النور الكهربائي الحسي، وإذا كنت في غرفةٍ مظلمة يضيق صدرك، كذلك النور المعنوي بالنسبة للإنسان، من رُزق نور الإيمان انشرح صدره وفرح ورُزق السرور بالله سبحانه وتعالى وبطاعته، والعكس بالعكس.

القارئ: ثم قال رحمه الله: "ومنها العلم، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحسرة والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرًا وأوسعهم قلوبًا وأحسنهم أخلاقًا وأطيبهم عيشًا، ومنها الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبته بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرف لصدر العبد من ذلك، حتى إنه ليقول أحيانًا: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذًا في عيشٍ طيب، فللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسٌ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه ومخالطتهم حمى روحه. ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى".

شرح الشيخ: قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن أسباب انشراح الصدر العلم، أل في العلم للعهد؛ العلم المعهود المعروف وهو العلم النافع وهو العلم الموروث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا؛ لأنه على بصيرةٍ في دينه، على بصيرةٍ في سيره إلى الله، لا يتخبط في سيره إلى الله، في عبادته، في طاعته، في معاملاته لإخوانه المسلمين وغير المسلمين، يعرف كيف يعامل الناس جميعًا؛ لذلك يقول: حتى يكون أوسع من الدنيا، لأنه يعلم كيف يعيش في هذه الدنيا، كيف يعامل رب العالمين، وكيف يعامل أولياءه وكيف يعامل أعداءه، يعلم كل شيء يحتاج إليه.

والجهل يورثه الضيق والحسرة والحبس؛ الجاهل الذي لا يعرف ما يجب لله، لا يعرف حق الله، لا يعرف حق رسول الله عليه الصلاة والسلام، لا يعرف حق عباد الله، قد يعطي ويصرف لعباد الله محض حق الله تعالى لجهله، الجاهل الذي يجهل الضروريات من الدين أو العلم الضروري الذي لا يسع مسلمًا أو مسلمةً أن يجهله، هذا يكون في ضيقٍ، في حرجٍ، في حبس، لا يعرف حتى ما يصلحه هو، لا يصلح العبد شيءٌ مثل معرفته لربه، الجاهل لا يعرف ربه، الجاهل يتبع كل ناعق، إذا قال له قائلٌ: الله في صدري كما يقول بعض شيوخ الطرق يصدق، إذا قال له القائل: (الله في كل مكان) يصدق، إذا قال القائل: هذه السموات وهذه الأجرام هي نفسها الله يصدقه، الجاهل الذي لا يعرف ربه حقيقة المعرفة، ولا يعرف نبيه حق المعرفة، وما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام المعرفة الواجبة في ضيقٍ ليس بعده ضيق وفي حرج وفي حبس.

لذلك ننصح إخواننا المسلمين أن يتعلموا العلم الضروري، العلم علمان: علمٌ ضروريٌ لا يسع مسلمًا جهله أبدًا، لذلك عند ما بدأ شيخ الإسلام المصلح المجدد تجديده ألّف للناس رسالةً صغيرةً كانوا يحفظونها حتى العوام والأطفال، يحفظون العوام في مساجدهم والأطفال في بيوتهم، لأن هذه الرسالة التي تسمى الأصول الثلاثة مشتملة على

العلم الضروري الذي لا يسع مسلمًا جهله، لذلك على طلاب العلم وعلى المصلحين المنتشرين في العالم للإصلاح أن يبدؤوا في تربية الناس بصغار العلم، بأن يعرفوهم رب العالمين ونبيه ودينه، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وأركان الصلاة، معنى لا إله إلا الله، ونواقض الإسلام؛ هذه الأمور لا يسع مسلمًا جهلها، من جهل هذه الأمور إسلامه على خطر، إسلام تقليدي، إيمانه إيمانٌ تقليدي لا يجدي ولا ينفع، لذلك فهو في ضيقٍ وفي حبس.

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا علمًا نافعًا وعملاً صالحًا مقبولًا عنده سبحانه.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: والجهل يورثه الضيق والحسرة والحبس؛ هذا شيءٌ ملموس، والجاهل يدرك ذلك من نفسه، الإنسان الذي أدرك مرضه من الغباوة بمكان ألا يبادر بالعلاج، والجاهل الذي يعلم من نفسه مثل هذا الجهل من الغباوة بمكان عدم المبادرة بالتعلم، والتعلم في هذا الوقت أيسر من أي وقتٍ مضى، عند ما كانت الناس تسافر من مكانٍ إلى مكان للبحث عن مسألة علمية أو عن عالمٍ يعلم الناس، بينما الآن العلم دخل عليك في بيتك، دخلت عليك المسائل العلمية والفتاوى الإسلامية في بيتك، من قصر في هذا الوقت في التعلم رجالًا ونساءً فهو المقصر، ليس له أدنى عذرٍ أبدًا، أينما كان، حتى المسلم الذي يعيش في غير بلاد المسلمين العلم يلحقه هناك.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، إذا تجاوز المعلومات الضرورية ودرس واتسعت معلوماته في العقيدة، في الشريعة، في الأحكام، في المعاملات، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علمٍ؛ لأن العلم بالمفهوم اللغوي بمعنى المعرفة، يشمل أي علم، ولكن هذا العلم الذي هو موضوع حديثنا ليس هو كل علم، بل هذا للعلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، العلم الشرعي، العلم الذي به تعرف الله وتعرف دين الله وتعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعرف الدار الآخرة والاستعداد لها، وليس معنى ذلك أنه لا يجوز لك أن تتعلم غير هذا

العلم، لا، تعلم هذا العلم وبعد ذلك تعلم أي علمٍ نافعٍ لك في الدنيا والآخرة ما لم يكن ضارًا.

العلم النافع النفع المطلوب للعبد في آخرته، في دينه، وقد تكون علوم الدنيا نافعةً نفعًا خاصًا، نفعًا مقيدًا، نفعًا مؤقتًا، لكن هذا العلم هو العلم النافع النفع الذي لا تستغني عنه أبدًا، فأهله أشرح الناس صدرًا؛ أهل هذا العلم أشرح الناس صدرًا، وأوسعهم قلوبًا، وأحسنهم أخلاقًا، وأطيبهم عيشًا، لا يضيقون.

ثم قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومنها الإنابة. الإنابة إلى الله من أسباب انشراح الصدر، الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته بكل القلب، حتى لا يكون في قلبك محبوبٌ سواه، لا تحب أحدًا مع الله، حرامٌ على قلبٍ أن يجمع بين محبة الله ومحبة غيره.

انتبه هنا محبتان: الحب في الله والحب مع الله، المحرم الذي لا يجوز أن تتورط فيه أن تحب مع الله، أن تجمع في قلبك مع الله محبوبًا آخر، تحبه كما تحب الله، وتعظمه كما تعظم الله، وتخافه وترجوه وتراقبه وتعتقد أنه معك في كل لحظة يعلم منك كل شيء، لا يوجد من يتصف بهذه الصفات غير رب العالمين، ولو جعلتَ محبوبًا آخر شيخك أو إمامك أو شيخ طريقتك، جعلتَ له شيئًا من هذه المحبة، حلَّ في قلبك مع الله، تعظمه، وتخاف منه، أشركت بالله شركًا أكبر لا يُغفر إلا بالتوبة، حتى تطرد ذلك المحبوب الثاني من قلبك، ليكون محبوب قلبك هو الله وحده لا شريك له، أما من يحب شيخه ورئيسه كما يحب الله، ويعظمه كما يعظم الله، وربما يعتقد فيه معرفة علم الغيب وأنه يضره أو ينفعه ويحذر منه مشركٌ شركًا أكبر.

وهناك محبة طبيعية، تحب ابنك وأهلك، وتحب سيارتك، تحب مالك، هذه محبة طبيعية ليس فيها خضوعٌ وتذللٌ فهي غير ضارة، ليست محبة عبادة.

وهناك محبةٌ عظيمة نافعة لك: الحب في الله، تحب أولياء الله، شخصًا تعتقد فيه الصلاح والتقوى والاستقامة، تحبه، لا لشيءٍ آخر، بل لكونه وليًا من أولياء الله وعبدًا صالحًا لله محبًا لله، أحببته لكونه يحب الله هذا عملٌ صالح، لذلك إذا تحاب اثنان في الله واجتمعا على هذه المحبة وافترقا عليها يكونان من الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إذًا فرق، باب المحبة بابٌ عظيم، يجب أن يدرس طلاب العلم هذا الباب، الإشراك في هذا الباب شيءٌ خطيرٌ جدًا، لذلك قال: ومحبته بكل القلب.

ثم قال: والإقبال عليه، فلا تقبل إلا عليه، لا تلتفت بقلبك إلا إليه، والتنعم بعبادته، وأن تحس التنعم والراحة في عبادته، ذلك إذا وحدت الله، أما إذا كنت تعبد معه غيره لا تجد ذلك التنعم وأنت في قلق، تخاف الله وتخاف غير الله، وربما يزين لك شيطانك فيقول: لو قصرت في حق الله الأمر هين، لأن الله غفورٌ رحيم، لكن لو قصرت في حق الشيخ فالشيخ لا يتسامح ولا يغفر ولا يعفو، لا تحسبوا هذا الكلام فيه نوعٌ من المبالغة، هذا موقف كثيرٍ من أتباع مشايخ الطرق، الذين استولت على قلوبهم محبة شيوخهم.

لدي سؤال وردني البارحة في هذا المعنى سوف نجيب عليه، لتتصوروا أن أتباع مشايخ الطرق يعظمون مشايخهم أكثر من تعظيمهم لرب العالمين، ويخافون منهم أكثر مما يخافون من رب العالمين، بدعوى أن الله غفور رحيم والشيخ لا يغفر ولا يرحم، يجب أن تمشي معه حرفيًا هكذا، أين الإيمان مع هذا الاعتقاد؟ والإقبال عليه وحده سبحانه وتعالى والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، اسأل مجربًا ولا تسأل طبيبًا.

العلامة ابن القيم من الذين لهم ذوقٌ خاصٌ في هذا المعنى، لذلك يتحدث عن معرفة وعن إحساس وعن تجربة، لا يتحدث حديث ناقلٍ مثلما ينقل كلام الناس إلى الناس.

يقول: فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، يقول العلامة ابن القيم: قد يصل العبد إلى حتى إنه ليقول أحيانًا: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة أي: دخل في الدنيا جنة

وأحس بهذه الجنة، وتنعم بها، يقول: إن رُزقت في الآخرة جنةً كهذه فإني إذًا في عيشٍ طيب. هذا لا يقوله الذي يحكي، ولكن يقوله الذي تذوق رحمه الله.

يقول العلامة ابن القيم: وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر. وهذه المحبة لا تتحقق إلا بالإقبال الكامل وعدم الانشغال بغير الله، أما من شغل نفسه بغير الله، بغير عبادته، بغير طاعته، بغير اتباع دينه، من شغل نفسه بأمورٍ تافهة لا تحصل له مثل هذه المحبة، فللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب لا يعرفه إلا من له حسٌ به. صدق رحمه الله، فلا يعرف ذلك ولا يدركه إلا من له حسٌ بذلك، فكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح.

لذلك مع كثرة ما ابتُلوا به من خصومهم وأعدائهم من طردٍ ونفيٍ وسجنٍ ما كانوا يتضايقون أبدًا، الذي يدلكم على ذلك هو وشيخه لم يجدوا راحةً من أعدائهم، ومع ذلك انظروا إلى مؤلفاتهم، خصوصًا مؤلفات شيخه، متى ألَّف هذه المؤلفات التي عجزنا الآن من استيعابها؟ فهو يُسجن ويُطرد، هو يُنفى، متى ألَّف هذه المؤلفات؟ يدخل في السجن فيؤلف مع العبادة والخلوة، يشتغل بالتأليف والتعليم، يُطرد إلى الإسكندرية وإلى القاهرة، يتربع على كرسيٍ في مسجدٍ من المساجد فيدرِّس، لا يشغله الطرد، ولا يشغله النفي عن التعلم والتعليم ونفع عباد الله والاشتغال بطاعة الله، لأنه لا يحس هذا الذي يحسه أحدنا عند ما يحصل عليه أي ابتلاء، يضيق صدره، ويقصر في أداء الواجبات، وتعليم عباد الله، أما هم فلا؛ هذا دليل على أنهم وصلوا إلى أن أحسوا هذا الذي يتحدثون عنه.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، في طيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسٌ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن، عند ما يختلط بالبطالين أصحاب البطالة المعرضين عن الله، المعرضين عن التعلم والتعليم، المنشغلين بدنياهم وما يلهيهم عن الله، هؤلاء أصحاب البطالة، الفارغين لجهلهم،

فرؤيتهم قذى عينه، رؤية أمثال هؤلاء عند ابن القيم وغيره قذى عينه، يتأذى من رؤية هؤلاء، إذ ليس في إمكانه هدايتهم وتعليمهم جميعًا ودعوتهم إلى الله، ماذا يعمل؟ يتأذى من رؤيتهم، المقاهي مليئة والشوارع ملأى بأمثال هؤلاء، ليس له حيلة في هدايتهم وإرشادهم، لذلك يتأذى.

(ومخالطتهم حمى روحه)، أمرضوا روحه إذا خالط أمثال هؤلاء، لذلك يرون إن السجن خلوةٌ لهم يستريحون فيها مع الله، يكونون مع الله، يكون الله معهم بالنصر والتأييد والتوفيق، ويعينهم ذلك على السير إلى الله.

قال: "ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال وفي كل موطن، وللذكر تأثيرٌ عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيبٌ في ضيقه وحبسه وعذابه. ومنه الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا وأطيبهم نفسًا وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًا وغمًا، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق، كمثل رجلين عليهما جُنتان من حديد كلما همَّ المتصدق بصدقةٍ اتسعت عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه، ويُعْفى أثره، وكلما همَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقةٍ مكانها، ولم تتسع عليه، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه".

إذًا العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ذكر أن من أسباب انشراح القلب الإنابة ومحبة الله تعالى بكل القلب، قال: ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى، يذكر العلامة ابن القيم الداء ليصف الدواء.

من أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، الإعراض عن الله تعالى وعن دينه قد يصل إلى حد الردة، وقد عدَّ بعض أهل العلم الإعراض عن دين الله تعالى من نواقض الإسلام، بحيث لا يتعلم الإسلام ولا يحاول

العمل به، بل لا يرفع رأسه لمعرفة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

الإعراض عن الدين وعن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بحيث لا يشتغل بتعلمه والعمل به، بل لا يبالي به، ولا يرفع رأسه ليتعلم الهدى الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الإعراض قد يصل إلى حد الكفر وهو معدودٌ من نواقض الإسلام كما درستم في نواقض الإسلام.

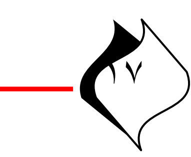
وتعلق القلب بغيره تعالى يشمل تعلق الإنسان برئيسه، بشيخه، وتعلقه بدنياه وماله ومحبوبه من غير الله، والغفلة عن ذكره سبحانه وتعالى فلا يكاد يذكر الله، مشغولٌ بما تعلق به قلبه ومحبة سواه، مما يسبب ضيق الصدر محبة غير الله تعالى محبةً لا تليق إلا بالله كما تقدم، فإن من أحب شيئًا غير الله عُذب به، فيكون دائمًا مشغولٌ بهذا المخلوق الذي أحبه، سواءٌ أحبه لكونه شيخه أو لكونه رئيسه، أو أحب ماله ودنياه، شغلته ماله ودنياه عن ذكر الله تعالى، وسبب له ذلك الإعراض عن الله، وشُغل، وإذا أحب غير الله مع الله محبةً التي هي محبة عبادة فيها الخضوع والتذلل وأحب غير الله مع الخضوع والتذلل فهو شركٌ أكبر ومن نواقض الإسلام، فمن ابتُلي بمثل هذه المحبة –أي محبة غير الله تعالى– قد ابتلي.

يذكر العلامة ابن القيم في بعض كتبه: إنما كان الشرك أعظم الذنوب، وأن من مات عليه لا يُغفر له ويكون خالدًا مخلدًا في النار لأن الشرك تنقص به محبة الله تعالى، محبة الله روح الإيمان، الإيمان بدون محبة الله تعالى كالجسد الذي بلا روح، أي إيمانه إيمانٌ شكلي، ليس إيمانًا حقيقيًا إذا فقد محبة الله، إذا أشرك مع الله في مثل هذه المحبة العظيمة وهذا العنصر العظيم من عناصر الإيمان انقسمت هذه المحبة قسمين؛ قسمٌ لله وقسمٌ لغير الله، نقصت المحبة، لذلك أصبح الشرك من أعظم الذنوب.

فإن من أحب شيئًا غير الله تعالى عُذب به، لأنه مشغولٌ به، وهو لا ينفعه ولا يضره، وسُجن قلبه في محبة ذلك الغير وفُتن به، فأعرض عن الله، وذلك المحبوب لا يقدم ولا يؤخر ولا ينفعه في شيء، فيقول العلامة ابن القيم: فما في الأرض أشقى منه، ولا آسف منه بالًا، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعب قلبًا، لأنه ترك هذا المعنى العظيم جله لغير الله تعالى، فحُرم محبة الله، ومعية الله الخاصة، وعونه وتوفيقه، فلم يستفد من محبة غيره، ثم قال: فهما محبتان.

المحبة محبتان، محبةٌ هي جنة الدنيا وسرور النفس، من رُزق تلك المحبة دخل جنة الدنيا، ورُزق سرورًا لا مثيل له ولذة القلب ونعيم الروح وغذاء الروح ودواء الروح، بل حياة قلبه وقرة عينه، وهي محبة الله وحده بكل القلب، بهذا القيد بكل القلب بحيث لا تنقسم المحبة بينه وبين غيره، من رُزق هذه المحبة بكل قلبه دخل جنة الدنيا وهو في الدنيا، ومن دخل جنة الدنيا –إن شاء الله– إنه يدخل جنة الآخرة بتوفيق الله تعالى، لأن هذا علامة التوفيق إن مات على ذلك يُرجى له الخير، من مات على خير عمله فارجُ له خيرًا، هذه هي المحبة، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل وقوى الإرادة وقوى المحبة كلها إلى الله سبحانه وتعالى، بحيث لا يلتفت إلى سواه، في السراء والضراء، في كل لحظة، فتصير الموجودات كلها كالجمادات، إذ لا تنفع ولا تضر حقًا، لا فرق بين الجمادات وغير الجمادات لأن المخلوقات كلها لا تضرك إلا بما كُتب عليك، ولا تنفعك إلا بما كُتب لك، إذًا الأمر كله لله، هكذا يُرزق بعض عباد الله مثل هذه المحبة، فيدخلون جنة الدنيا قبل جنة الآخرة، هذه واحدة.

المحبة الثانية: محبةٌ هي عذاب الروح، غم النفس، سجن القلب، ضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سوى الله، من ابتُلي بمحبة مخلوقٍ ما أيًا كان مخلوقًا يعبده ويعظمه، مخلوقًا يشغله عن الله تعالى، ولو لم يكن من باب العبادة لكن يشغله عن الله المعبود، سُجن قلبه وضاق صدره، وسيقت إليه الآلام والنكد والعناء من كل فج



ويعيش في ضيق، وبهذا يشخص العلامة ابن القيم أمراض القلب، وأمراض القلب علاجها بالطب النبوي والأطباء لا يعالجون هذا المرض وقد يكونون هم أنفسهم مرضى، ولكن العلاج بالطب النبوي؛ اشتغل بذكر الله الأذكار المشروعة، عليك أن تقتني كتب الأذكار، الأذكار للنووي، والوابل الصيب، والكلم الطيب، وصحيح الكلم الطيب، وغير ذلك من الكتب التي جمعت لك الأذكار المأثورة وتبين فضل الأذكار ومكانة الأذكار حتى لا تنسى الله، إن نسيتَ الله هلكتَ ووقعتَ في هذه الآلام، إذا شُخص المرض سهل العلاج، إذا عرفنا أنواع هذه الأمراض علينا أن نشتغل بالعلاج بتوفيق الله تعالى.

القارئ: قال العلامة ابن القيم: "ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال، وهذا سهلٌ ميسورٌ على من يسره الله عليه".

شرح الشيخ: تذكر الله بالأذكار المقيدة عند نومك، عند الاستيقاظ من النوم، عند الخروج من المنزل، عند دخول المنزل، عند دخول المسجد، عند الخروج من المسجد، الأذكار المقيدة الكثيرة، تذكر الله في طريقك، عند ركوبك، بأذكارٍ مشروعةٍ لا تحتاج إلى أن تتخذ سرعةً طويلة، تذكر الله بالتهليل والتسبيح والاستغفار، وتكثر من الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، وأفضل الذكر تلاوة كلامه، التالي لكلام الله –القرآن- كأنه يتحدث مع الله، فهو أفضل الذكر إلا في بعض المواطن التي عين الشارع لها أذكارًا معينة، تشتغل بهذه الأذكار، أما في الأوقات العامة فأفضل الذكر قراءة القرآن بتعقلٍ وتدبرٍ ثم محاولة العمل به والدعوة إليه. وفي كل موطن وللذكر تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، وهذا كلام مجرب.

يقول العلامة ابن القيم: **"للذكر تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر"**؛ جرب، أكثر من ذكر الله تعالى حتى ترى الأنس مع الله، فإذا تركت ذكره وشغلك شاغل وجدتَ وحشةً في نفسك، لا تستأنس إلا حين تذكر الله بالأذكار المشروعة، "وفي نعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيبٌ في ضيقه وحبسه وعذابه"؛ الغفلة عن الله تقدمت الإشارة إلى أسباب الغفلة،

التعلـق بغـير الله، والانشـغال بغـير الله، وعـدم الانشـغال بـتعلم شرع الله والعمـل بـه، والانشغال بجمـع الـمال في كـل وقـت، حتـى ينصرـف إلى ذلـك انصرـافًا كليًـا، وأن يشـغل بمحبوبٍ أحبه أيًا كان ذلك المحبوب؛ ماله وولده وأهله وشيخه ورئيسه، كل ذلك يوقعه في الغفلة عن الله ويسبب له الوحشة والعذاب.

يقول العلامة ابن القيم: "من أسباب انشراح الصدر الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال".

الإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الله تعالى بأن تعبد الله بالعبادات المشروعة بالإخلاص وبالمتابعة.

النوع الثاني: الإحسان إلى الخلق، الإحسان إلى عباد الله، شكرًا لله، الذي أنعم عليك ومكنك لتكون يدك هي اليد العليا، وأعطاك ومكنك من الإنفاق والإحسان، في الإحسان إلى الخلـق شـكرٌ لله تعـالى ورحمـةٌ وشـفقة، يـرحم المـرضى ويـرحم أصـحاب الحاجـات والمنكوبين وكل من يحتاج إليه، بما يمكنه من المال، قليلاً كان أو كثيرًا، وينفعهم بجاهه، بما لديه من الجاه والمنصب، يستغل جاهه ومنصبه ومكانته عند الناس في نفع عباد الله، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان الكثيرة.

يقول: **"فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم بالًا"**؛ لأنه أرضى ضـميره، أرضى الله وأرضى ضـميره بهـذا الإحسـان، وبتفـريج كـرب المكـروبين، وبقضاء حاجة المحتاجين، وأما البخيل الذي ليس فيه إحسانٌ فهو أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم همًا وغمًا؛ لأنه خالف الفطرة وخالف المعقول وخالف الشرع، لذلك ضميره يؤنبه، لذلك يحمل الهم والغم، والبخل والشح لا يمكِّنه أن يمد يد الإحسان إلى عباد الله، ويكون قلقًا بين إرضاء بخله وبين ما يحسه من عتاب ضميره، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما

جُنتان من حديد، كلما همَّ المتصدق الكريم السخي بصدقةٍ اتسعت تلك الجنة عليه وانبسطت، حتى يجر ثيابه، ويُعْفى بذلك أثره، وينفق في سبيل الله تعالى في السر والعلانية، ولا ينفق رياءً وسمعة، وكلما همَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقةٍ مكانها، ولا تتسع عليه، محبوس، ولم تتسع عليه، حتى لا يتمكن من مد يده، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

البخل يلازم الجبن، والكرم يلازم الشجاعة، إذا رأيت كريمًا سخيًا فاعلم بأنه شجاع، وإذا رأيت بخيلاً شحيحًا فاعلم بأنه جبان، هكذا أثبتت التجارب التلازم.

القارئ: **ثم قال رحمه الله:** "ومنه الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، فأما سروره ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرمٌ على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل معرضٍ عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذكره، جاهلٍ به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه، متعلق القلب بغيره، وإن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا، ولا عبرة بانشراح صدر هذا لعارض ولا بضيق صدر هذا لعارض؛ فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، وهي الميزان، والله المستعان".

شرح الشيخ: قال العلامة ابن القيم: من أسباب انشراح الصدر الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، الشجاع الذي يبذل روحه سخيةً في سبيل الله تعالى كذلك يبذل المال وهو منشرح الصدر، محبوبٌ عند الله، واسع البطان؛ البطان حزامٌ للقتب، يقال: إذا أراد الإنسان أن يصف الأمر بالشدة يقول: التقت حلقتا البِطان، أي الحزام، واسع البطان متسع القلب منشرح البال، والجبان أضيق الناس صدرًا، لأنه على خلاف الفطرة السليمة

والعقل الصريح وأمر الشريعة، مأمورٌ بأن يبذل وينفق فخالف ذلك، خلقه الجبن والبخل منع من ذلك، إذًا فهو بين امتثال هذا البخل وبين تحمل عتاب ضميره، وعتاب الناس له، لذلك هو أضيق الناس صدرًا، وأحصرهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، يحاول أن يفر من الناس، فيعرض عن أصحاب الحاجات لئلا يمد يد المساعدة، ويحاول أن يخفي ما لديه من النعم، لا لذة له إلا لذة البهائم البهم، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، يتلذذ بأكله وشربه ونكاحه، كالحيوانات، أما كونه يتلذذ بالبذل والعطاء وقضاء حاجات الناس والإحسان إلى المحتاجين هذا يجد فيه الإنسان لذة، من رزقه الله مالًا صالحًا وهو صالح «نعم المال الصالح للرجل الصالح»، الرجل الصالح عند ما يُرزق المال الصالح الحلال الطيب فينفق في مرضاة الله تعالى يجد في ذلك لذةً وسرورًا وانشراحًا للصدر.

وأما سرور الروح ولذة الروح ونعيم الروح وابتهاج الروح فمحرمٌ على كل جبان؛ لأن هذه المعاني لا تحصل إلا حين يبذل، وإلا حين يفرِّج، وإلا حين يعطي، وإلا حين يحسن، كما هو محرمٌ على كل بخيل، وعلى كل معرضٍ عن الله تعالى غافلٍ عن ذكره، جاهلٍ بالله وبأسمائه تعالى وصفاته، جهله بالله بأن الله سبحانه وتعالى هو المعطي المانع وهو المنعم المتفضل، وهو الذي رزقه، وهو الذي إن شاء يمسك عنه ويزيل ماله، جهله بأسمائه وصفاته، وجهله لدينه الذي يأمر بالإحسان والرحمة والشفقة، متعلق القلب بغيره، مشغولٌ بغيره دائمًا إما بمال ذاته، أو بأمثاله من زملائه البخلاء، أو متعلقٌ بغيره ليلتمس منهم البركة في ماله، ليباركوا له في ماله.

وإن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضًا وجنة، ولذلك قال من قال: لا يدخل الإنسان جنة الآخرة حتى يدخل الدنيا، إذا دخل جنة الدنيا فحصل له هذا السرور وهذه الفرحة ونعيم القلب هذه المعاني تتحول في القبر إلى رياضٍ وجنة، فالقبر إما روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار، وذلك الضيق الذي عند البخيل وعند الجبان ينقلب في القبر عذابًا وسجنًا، لأن هذا البخيل قد يبخل بحق الله، لا يؤدي حقوق الله التي

جعلها الله في ماله الذي جعل في يد هؤلاء العباد، المال مال الله جعله في يد بعض عباده، ليحسن البعض إلى البعض الآخر من مال الله، يعطي من مال الله لعباد الله، جعل الله في هذا المال حقًا واجبًا لازمًا ركنًا من أركان الإسلام، وجعل فيه واجباتٍ أخرى، يبخل بكل ذلك ويتحول كل ذلك عذابًا وسجنًا، فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر، فلينظر هل هو منشرح الصدر يعيش في نعيم وفي سرور، أو هو ضيق الصدر يعيش في سجنٍ وحصرٍ وعذاب، والتوفيق بيد الله.

ولا عبرة في انشراح صدر هذا لعارضٍ؛ أي لانشراح صدر هذا الذي ضاق صدره ينشرح صدره أحيانًا لعارض، ولا بضيق صدر هذا لعارضٍ؛ الإنسان له أعراض بشرية، قد تحصل للإنسان بعض الأعراض البشرية فيضيق صدر المؤمن في بعض الظروف وفي بعض الحالات، ولكنه يزول بذكر الله تعالى وبالالتجاء إلى الله وبالإنابة إليه، وكون الإنسان يصاب أحيانًا بأمراض ثم يتعالج فيزول ذلك، أو يحصل لهذا الذي صدره ضيق حرج أحيانًا انشراح بأن وُفق ومدَّ يده وأحسن هذه عوارض، لكن الحالة الدائمة كما وُصفت، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب توجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان، والله المستعان.

القارئ: ثم قال رحمه الله: "ومنها بل من أعظمها إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظَ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما".

شرح الشيخ: يقول العلامة ابن القيم: ومن الأسباب أسباب خفية ولكنها خطيرة، من أعظم تلك الأسباب إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة؛ الحسد والحقد والحرص الشديد وطول الأمل والتسويف بالتوبة، مبتلى بالحسد، إذا رأى نعمةً على غيره تمنى زوالها، سواءٌ انتقلت إليه أو زالت إلى أي جهة، لا تطيب نفسه عند ما يرى نعمةً على غيره من مالٍ

وعلمٍ وصحةٍ والتزامٍ... أي نعمة، يصاب بحسد، وهذا الحاسد معترضٌ على الله، لأن لسان حاله يقول: لماذا أعطيت فلانًا يا رب هذه النعمة؟ لماذا رزقته مالًا وصحةً وعلمًا والتزامًا؟ حسد وحقد، يضيق صدره، صفات مذمومة تنتج الغيبة والنميمة، ربما تنتج السعي في إلحاق الضرر بالمحسود، وهي توجب ضيقه وعذابه، الحاسد المعترض على الله والمصاب بطول الأمل أنه سوف يفعل، سوف يجمع، سوف يشتري، سوف يبني، أمل طويل، وتأخير في التوبة، فيما بعد: بعد أن يشيب، بعد أن يعجز، بعد أن يكبر، بعد كذا وكذا، صفات ذميمة، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره التي تقدم ذكر أكثرها ولكنه لم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه قد يعطي وينفق ويكثر من ذكر الله، لكن مع ذلك أصيب بهذه الأمراض، يقول: لم يحظَ من انشراح صدره بطائل؛ لا طائل تحت انشراح صدره طالما هو موصوفٌ بهذه الصفات الذميمة.

العلامة ابن القيم له كتابٌ -بل كتبٌ- يعالج فيها هذه الأمراض بالطب النبوي، له كلامٌ عظيمٌ في طريق الهجرتين، وفي الكتيب الصغير الفوائد، وفي مدارج السالكين، ومفتاح دار السعادة، على شبابنا أن يستغلوا أوقات الفراغ في دراسة هذه الكتب التي تعالج أمراض القلب، وتحمل الإنسان على أن يحاول ليلحق بركب السلف الصالح، بالاستقامة لا بالالتزام الشكلي، فالتزام الشكلي لا يجدي، الثوب القصير واللحية الطويلة الكثة مما شرع الله وحث عليه، لكن إن لم توجد وراء هذا معانٍ إسلامية لا تجدي هذه المظاهر وحدها، بل ينبغي أن تكون هذه المظاهر أثرًا من آثار التزامه واستقامته الحقيقية، إذا استقام قلبه وطهر قلبه وأملت عليه هذه المعاني هذا الالتزام الظاهري نعم الالتزام ونعمت الاستقامة.

أما كون الإنسان يكتفي بالمظهر ولا يعالج أمراض قلبه هذا لا يجدي أبدًا، لا ينفع، لذلك الكتب التي ذكرتها تشرح لك آياتٍ وأحاديث فيها العلاج، وتحملك على تدبر كتاب

الله، والتأمل في سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى تعالج نفسك بنفسك وتكون طبيب نفسك، بدراسة هذه الكتب، وإلا فإن هذه الأمراض خطيرة جدًا كما قال العلامة ابن القيم هنا، كون الإنسان يحصل له من أسباب انشراح الصدر التي تقدم ذكرها، ولكن أصيب بهذه الأمراض لا يستفيد طائلاً من انشراح صدره، ومن التزامه الشكلي الظاهري، بل لا بد أن يجمع بين علاج أمراض القلب وبين تطبيق الشريعة والالتزام، والتوفيق بيد الله.

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يخرِج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظَ من انشراح صدره بطائل، أمرٌ ناقص ليس بكامل، وغايته أن يكون له مادتان، تعترض كل مادةٍ المادة الأخرى، وتقاوم، وهو للمادة الغالبة عليه منها، إما أن تغلب الأوصاف المذمومة؛ البخل وأثره، والحقد وأثره، والتسويف وطول الأمل، والعجب والكبر، أو المعاني التي تقدم ذكرها التي توجب انشراح الصدر، وبالله التوفيق.

القارئ: ثم قال رحمه الله: "ومنها ترك فضول النظر والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا وهمومًا في القلب، تحصره وتحسبه وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله، ما أضيق صدر من ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرةً عليها، هائمةً حولها، ولهذا نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، ولذلك نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أكمل الخلق في كل صفةٍ يحصل بها انشراح الصدر، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، وهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة، وقرة العين، مع ما خُص به من الشرح الحسي، وأكمل الخلق متابعةً له أكملهم انشراحًا ولذةً وقرة عين، فعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال، فهو صلى الله عليه وسلم في ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والله المستعان، وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقلٌ ومستكثر، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: من أسباب انشراح الصدر ترك فضول النظر، فضول النظر تنظر في كتاب الله، تنظر في هذه المخلوقات لتتفكر، ولكن تبتعد عن النظر إلى ما حرم الله عليك من جميع المحرمات التي تأتيها بالنظر، كذلك كونك تسافر لتنظر ولترى أشياء لإدخال السرور عليك في زعمك وأنت معرضٌ بذلك عن النظر في كتاب الله تعالى النظر الذي يورث التدبر والتعقل والعمل، فضول النظر، وفضول الكلام.

فضول الكلام يشمل: الكلام المحرم كالغيبة والنميمة، والكلام الذي لا طائل تحته، أحاديث تضيع الأوقات، يقضون بها الأوقات ويقتلون بها الأوقات، وهم يصرحون بذلك، يطلب بعضهم بعضًا الاجتماع ليقضوا الأوقات وليقتلوا الأوقات لأن الأوقات رخيصة عندهم وطويلة، يقضونها في فضول الكلام، ليس فيه ذكر الله، ولا فيه تلاوة كتاب الله، ولا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فضول الكلام أي الكلام الفارغ.

وفضول الاستماع، بدلًا من أن يستمع إلى كلام الله، إلى أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، إلى الدرس النافع، إلى المحاضرات النافعة، فإذا هو يتتبع ليسمع الأغاني، ليسمع وليسمع وليسمع، فضول الاستماع يشغله، وكل ذلك يورث ضيق صدره.

وفضول المخالطة؛ المخالطة خصوصًا في هذه الأيام لا تنتج إلا شرًا، اجتماعٌ على قيل وقال، فلانٌ قال كذا، فلانٌ جاهل، فلانٌ مقصر، فلانٌ ضعيف، وللأسف أصبح هذا الكلام اليوم يُسجل في الأشرطة، غيباتٌ ونميماتٌ وفضول الكلام تُسجل في الأشرطة وتُوزع على الناس، هذه المخالطة لو خالطوا أهل العلم وأهل الفقه في الله، لو خالطوا طلاب العلم ومن يستفيدون منهم ومن يفيدونهم لكان خيرًا، لذلك خيرٌ للإنسان في هذه الأيام أن يلازم العزلة، ما لم يجد مجالًا للمخالطة النافعة التي ينتفع بها أو ينفع بها.

فضول الأكل؛ يبحث عن كل ما لذ وطاب، لا يقتصر على ما يستعين به على طاعة الله، يكثر من الأكل فوق اللازم، وفضول النوم، والله المستعان، يقضي أكثر أوقاته في النوم، وقد قيل إن بعض البطالين في هذه الأيام يأتي من العمل في الليل يضبط ساعته على الساعة السابعة صباحًا لئلا يفوته الدوام، ليس له همٌّ في صلاة الفجر، فضلاً عن قيام الليل، بل المحافظة كلها على الدوام، وباقي الأوقات للنوم، بعد فضول الأكل وفضول الشرب وفضول المخالطة، وفضول كل شر، ينهي ذلك بالنوم الطويل الذي يؤدي إلى ترك صلاة الفجر، أي إلى الكفر، يتعمد ذلك، هكذا سئلنا عدة مرات من شبابٍ وصل بهم الترف إلى هذه الدرجة، فنسأل الله لنا ولهم العافية والتوبة النصوح.

فإن هذه الفضول التي تقدم ذكرها تستحيل آلامًا وغمومًا يومًا ما يكبر في السن، فيجد أنه قضى شبابه في فضول المخالطة وفضول النظر وفضول الكلام وفضول النوم، تسبب له آلامًا وهمومًا، ولكن إن كان ذلك يسبب له التوبة والرجوع إلى الله نعم الألم ونعم الحزن ونعم الهم والغم إذا كانت النتيجة التوبة والإنابة، لكن إذا كان لا يشعر بذلك قد يستمر فيما هو فيه، يبقى حياته في همٍ وغمٍ وألمٍ، ويستحيل آلامًا وهمومًا وغمومًا في القلب تحصره وتحسبه وتضيقه، ويتعذب بها، لا يجد من نفسه انشراحًا، كيف ينشرح باله وقد أعرض عن الله وعن ذكر الله؟ وعن الكلام النافع والنظر النافع والاستماع النافع؟ من أين له انشراح الصدر؟

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها؛ أي من هذه الفضولات، ثم يقول: فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، ضرب بسهمٍ في فضول النظر، وفضول الكلام، وفضول الاستماع؛ جمع هذه الأشياء كلها، فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، وبالمقابل: ولا إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلةٍ من تلك الخصال المحمودة؛ الإنابة إلى الله والإحسان إلى عباد الله، والإكثار من ذكر الله، وغير ذلك من الخصال المحمودة التي تقدم ذكرها، وكانت همته دائرةً عليها، مشغولٌ بها، هائمةً حولها بين ذكرٍ وعطاءٍ وإحسانٍ وتدبرٍ لكلام الله وغير ذلك، ولهذا نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]؛ هم في نعيمٍ في الدنيا قبل نعيم الآخرة، ولذلك نصيبٌ وافرٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]؛ في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة، وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى، وقد ذكرتُ لكم الكتب التي يتوسع فيها العلامة ابن القيم في هذه الخصال، يعدد فيها تلك الخصال المحمودة، ويدعو إليها، ويرغِّب فيها، ويعظم فيها تلك الخصال المذمومة ويحذر منها –رحمه الله-.

والمقصود: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان أكمل الخلق في كل صفةٍ يحصل بها انشراح الصدر، في جميع هذه الصفات كان أكمل الخلق، واتساع القلب، وقرة العين، وحياة الروح، وهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة، وقرة العين، مع ما خُص به من الشرح الحسي؛ حيث رزقه الله الشرح الحسي، حسن الخلق، البشاشة، وعدم العبوس، وحسن المخالطة وحسن المعاشرة مع عباد الله، وأكمل الخلق متابعةً له أكملهم انشراحًا ولذةً وقرة عين، والتوفيق بيد الله، فعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال؛ لا ينال الإنسان هذه المعاني إلا باتباع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، إذ تقدم أن لا إله إلا الله وإخلاص العبادة لله وحده لا بد أن ينضم إلى ذلك شهادة أن محمدًا رسول الله، وأن يكون معنى ذلك متابعته والتأسي به، وأن تعبد الله بما جاء به هذا

النبي الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهو صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، وقد رفع الله ذكره، حيث لا يتم إسلام المرء بذكر الله وحده إلا بذكره عليه الصلاة والسلام، وحيث لا تصح صلاتك بذكر الله وحده إلا أن تذكر مع ذلك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وحيث لا تصح صلاتك وأذانك وإقامتك وأكثر العبادات إلا أن يُذكر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع ذكر الله، وقد رفع الله ذكره.

كل ذلك طريقة أن تكون محبتك له صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأنه عبد الله ورسوله، أما تقدير رسول الله عليه الصلاة والسلام واحترامه لكونه عبقريًا كما يفعل بعض الكتاب، أو يحب ذاته المحمدية لكونه قريبًا له، ولكونه كريمًا عظيمًا دون أن يشهد برسالته كل ذلك لا يجدي؛ إذ لا يوجد من يُحب لذاته إلا الله، ومن يُعظم لذاته إلا الله، ومن يُحَب ويُخاف ويُعظم لذاته لا يوجد إلا رب العالمين، فرسول الله محبته شعبةٌ من شعب الإيمان لكن شريطة أن تحبه لأنه عبد الله ورسوله، وأنتم تعلمون أن محبة أبي طالب كانت محبةً ذاتيةً قرابيةً شخصيةً لم تفده الفائدة المطلوبة؛ لذلك يجب محبة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمعاني الإسلامية ثم اتباع شرعه وهديه، وألا تعبد الله إلا بما جاء به هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال العلامة ابن القيم: ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه، والتوفيق بيد الله، والله المستعان، وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمته إياهم (هذه هي معاني المعية الخاصة)، ودفاعه عنهم؛ إن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا واتبعوا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ واتبعوا شرعه، وطبقوا شريعته، يدافع عنهم، وإن كان قد يبتليهم بأن يسلط عليهم أعداءهم، يجب أن يعلم المؤمن إذا دافع الله عنه ونصره وأيده أن ذلك فضلٌ منه سبحانه، وإن ابتلاه وسلط عليه أعداءه وخصومه وأوذي فليعلم أن ذلك عدلٌ منه سبحانه وتعالى، وفي كلتا الحالتين يجب أن يحقق العبودية.

من تحقيق العبودية أن توافق إرادتك إرادة الله، أن توافق إرادتك إرادة محبوبك وهو الله، لا تحب إلا ما يحبه، ولا تكره إلا ما يكرهه، لا تحب إلا من يحبه ربك سبحانه، ولا

تحب من الأعمال إلا ما يحبها، ولا تكره إلا ما يكرهه ربك ومولاك، بهذا تحقق معنى العبودية، وبالله التوفيق.

س: سائلٌ يسأل يقول: مرَّ عليّ حديثٌ يقول: «من حج فلم يزرني فقد جفاني».

ج: في هذا المعنى أحاديث ولا يصح شيءٌ في ذلك، حج البيت ركنٌ من أركان الإسلام، ولو حج الإنسان بيت الله ولم يعرج على المدينة، فرجع إلى بيته، وتكرر منه ذلك، لا ينبغي أن يُعاتب على ذلك، وإذا أراد أن يقوم بزيارة مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام له أن ينشئ السفر لذلك من بلده، أما ربط الحج بالزيارة وأن الحج لا يتم حتى يزور الحاج مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام ويسلم عليه هذا غلط، لا ينبغي أن يُفهم هذا الفهم، كما أنه لا يُربط بين الحج والعمرة، لو أن الإنسان حجَ فرجع إلى بلده فلم يعتمر فحجه صحيح، بل الأولى أن ينشئ للحج سفرًا وللعمرة سفرًا، ولزيارة مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام سفرًا، القادم من خارج المدينة من داخل البلاد وخارجها يجب أن يكون نيته زيارة هذا المسجد، لتكون زيارته زيارة شرعية، يصلي في هذا المسجد ويتعبد فيه، ثم يسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى صاحبيه، لا ينشئ السفر بنية زيارة القبر؛ إذ لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد باسم المساجد، كما تشد الرحل إلى مكة باسم المسجد الحرام تشد الرحل إلى المدينة باسم مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبعد ذلك تسلم على النبي عليه الصلاة والسلام، السلام على النبي وزيارة قبره من أفضل أنواع زيارات القبور –وهذا الكلام سوف يُشرح في درسٍ آخر-، لماذا كان الأمر كذلك؟ لأن الهدف الأول من زيارة القبور تذكر الموت، وهل هناك قبرٌ يذكرك بالموت ويحملك على الاستعداد لآخرتك مثل زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام؟ لا، لهذا نص بعض علماء الدعوة وأئمة الدعوة –أعتقد صاحب فتح المجيد- أن زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام من أفضل القربات وأفضل أنواع الزيارات، أفضل من زيارة أي قبر لهذا الغرض،

إذ يتحقق بزيارتك قبره عليه الصلاة والسلام ما لا يتحقق بزيارة قبر غيره، ولكن لا ينبغي شد الرحل لذلك، ينبغي أن تتم الزيارة بدون شد الرحل.

أما الحديث الذي ذكره السائل وما ورد في معناه من الأحاديث التي تحث على زيارة القبر وتربط ذلك بالحج فلا يصح شيءٌ من ذلك، كما ذكر أهل العلم، وقد يسيء بعض الناس الظن عند ما يقول القائل مثل هذا الكلام، وربما يتهمه بعدم محبة النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الاتهام لا يمنعنا أن نقول الحق، ليست محبة النبي عليه الصلاة والسلام تتمثل في أن تقف أمام قبره عليه الصلاة والسلام فقط، بل تتمثل محبة النبي عليه الصلاة والسلام في أن تتعلم هديه، وتعمل بالشريعة التي جاء بها من عند الله، وتدعو الناس إليها، وتؤمن بها، وتكتفي بها، وتعتقد أن حل مشاكل المسلمين جميعًا في هذه الشريعة، إذ يقول النبي عليه الصلاة والسلام: **«تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله وسنتي»**.

أما نحن ندعي محبة النبي عليه الصلاة والسلام لكن بدأنا نتجه لحل مشاكلنا السياسية إلى فاتيكان، إلى بابا، تاركين مكة والمدينة، تاركين رسول الله عليه الصلاة والسلام والدين الذي جاء به، بدأ بعضنا يعتقد أن حل مشاكلنا السياسية عند بابا في الفاتيكان، هذا الموقف قد يؤدي إلى الردة، اعتقاد الأخوة لبابا، واحترامه والغلو فيه، واعتقاد أن حل المشاكل بيد بابا الفاتيكان، أين الإسلام؟ أين الولاء والبراء؟ ما معنى هذا؟ ومع ذلك كله دعوى محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام، هذه أمورٌ متناقضة، ينبغي أن نفهم أصول ديننا، وينبغي أن نفهم أننا لو طبقنا شريعة القرآن انحلت مشاكلنا اقتصاديةً وسياسيةً واجتماعيةً، وجميع مشاكلنا، وكوننا عجزنا لماذا عجزنا عن حل مشاكلنا؟ لماذا عجزنا عن القضاء على هذه المشاكل والفتن؟ لأننا لم نطبق شريعة الله، لا حياة للآدميين الحياة السعيدة إلا بشرع الله مطلقًا، اليهودي والنصراني وكل آدمي ما لم يخضع لشرع الله لا يمكن أن يعيش عيشةً كريمة وسعيدة وفيها الهناء، بل لا بد أن تستمر الاغتيالات والقتل والطرد وجميع الفتن

والقتال بين الإخوان في بلدٍ واحد، كل ذلك يستمر حتى يرجع المسلمون إلى شرع الله، عند ذلك تنحل المشاكل، لا يحل بابا الفاتيكان أو بابا في أي مكان، بل هذا الاعتقاد جريمة وخروجٌ على دين الله تعالى، كون عالم من علماء المسلمين وداعية من دعاة المسلمين يذهب إلى فاتيكان، إلى بابا، أو إلى بابا آخر في غير فاتيكان، يخضع ويتذلل له، ويتملق له، ليطلب منه حل المشاكل والقضاء على الدمار الذي تعيشه أكثر بلاد المسلمين، والقضاء على الإرهاب، بابا يقضي على الإرهاب؟! بابا هو الذي يقضي على الإرهاب وعلى المشاكل؟! أما تعتقد كفره وأنه يفرح فرحًا لا مثيل له عند ما يذهب إليه عالمٌ كبيرٌ من علماء المسلمين، ويجلس بين يديه، والصليب على صدره، كم يفرح! عيدٌ عنده ذلك اليوم، يا للخسارة! هكذا وصل أمر المسلمين إلى هذه الدرجة، السبب الإعراض عن دين الله، والزهد في دين الله، بل الجهل بدين الله، الجهل المركب حيث يزعم الإنسان أنه عالم وهو جاهل.

لذلك من هنا نوجه نداءنا إلى المسلمين بهذه المناسبة: لا حل لمشاكلنا، والقضاء على جميع مشاكلنا، والقضاء على الإرهاب وكل شيء إلا بالرجوع إلى شرع الله، حاولوا ما حاولتم، فالمحاولة فاشلة، والتوفيق بيد الله تعالى.

س: سأل سائل يذكر أنه من بعض دول إفريقيا يصف ما يسمع من شيوخ التيجانية أنهم يدَّعون أنه لا يدخل الجنة إلا من انتظم في سلكهم، ودخل في طريقتهم.

ج: لو لم أشاهد هذا النوع من الناس لعددت هذا السؤال فيه نوعٌ من المبالغة، ولكن جاءنا في حدود عام **٨٢** أو **٨٣** شيخٌ كبير يُعبد في بعض دول إفريقيا في الغرب، سبقته إلينا قصيدته التي يقول فيها: ومن أحبني ومن رآني في جنة الخلد بلا بهتانِ، شخص عادي لما تراه في عمامته يقول: ومن أحبني ومن رآني في جنة الخلد بلا بهتانِ، هذا الشخص جاء إلى الجامعة ليمثل بلده في المجلس الاستشاري في ذلك الوقت، سبقته قصيدته إلينا، وقُرئت القصيدة على الشيخ عبد العزيز بن باز بهذه الانحرافات وغيرها من الكفريات، فعقد له الشيخ مجلسًا خاصًا فاستتابه، فأعلن بالتوبة، وزعم أنه إنما قال هذه القصيدة في شبابه،

فكان في حدود خمسين ستين أنه تاب، فطلب منه الشيخ توبةً له أن يعلن ذلك فيما يكتب من قصائد ومن رسائل لأنه كاتب، كتب على نفسه تعهد أنه سوف يؤلف كتابًا يعلن فيه التوبة وأن ما قاله كفرٌ وشركٌ، فسُمح له بالمشاركة في المجلس ترغيبًا له في التوبة، ولكن للأسف رجع إلى بلده وركب رأسه وازداد نفورًا، وتعنت أكثر فأكثر، ولم يعمل شيئًا.

وهذا السائل يذكّرنا بذلك؛ لذلك نقول بالاختصار: جميع الطرق الصوفية ضلالةٌ وبدع، لكن أضلها –حسب علمي– وأبعدها الطريقة التجانية، التي كان ينتسب إليها الشخص الموصوف، لأن القوم تجارٌ باسم الدين، ولعل بعضكم تعرفون ما يسمى بصلاة الفاتح، صيغة من صيغ الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام مخترعة من عندهم، أثبتوا لها من الأجر ما لا يثبت للقرآن العظيم، بل عملوا دعايةً سيئة ضد القرآن، حيث زعم من زعم أن المرة الواحدة من صلاة الفاتح أفضل من أن تختم القرآن ستة آلاف مرة، صدق أولا تصدق! هذا واقع القوم.

لذلك ننصح إخواننا الحضور أن يحذروا الناس من الانتساب إلى أي طريقةٍ من الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي، وبصفةٍ خاصة الطريقة التيجانية الكافرة، التي لا تؤمن إلا بالحياة، ذلك الشيخ زرنا المدينة التي يعيش فيها فإذا هو من أثرى أهل البلد؛ بمعنى باع دينه بدنياه، اختار هذه الحياة ولذلك يتعمد تضليل الناس ودعوة الناس إلى عبادة نفسه.

وما سأله هذا السائل من دعوى أنه لا يدخل الجنة إلا من انتسب إلى طريقتهم نقول: تلك جنتهم، إنما جنة الله لا يدخلها إلا المخلصون، جنة التيجانية لا تهتم بها، فجنة الله تعالى للمخلصين، أخلص العبادة لله وأقبل على الله، وأبشر بخير، ولا تحزن على قولهم.

س: سائلٌ يسأل: إذا أفطرت الحبلى ما الذي يجب عليها؟

ج: يفصل الفقهاء في هذه المسألة؛ إن أفطرت خوفًا على نفسها كأن نصحها الطبيب المختص أو الطبيبة بأن الصوم يضرها فأفطرت خوفًا على نفسها ليس عليها إلا القضاء. وإن أفطرت خوفًا على الجنين وكذلك المرضع على طفلها عليها القضاء والكفارة، القضاء محل إجماع، والكفارة في المسألتين محل خلافٍ بين أهل العلم.

فلنكتفِ بهذا المقدار، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وآله وصحبه.